هذا الواقع بصورة تدعو إلى التساؤل من حقيقة ان معظم المنظمات والاحزاب التي نشأت خلال السنوات ١٩٠٨ ـ ١٩١٤، بما في ذلك الحزبان البارزان «العهد» و«العربية الفتاة» اللذان كانا وراء الدعوة الاستقلالية للعرب عن الاتراك، قد فقدت أي استمرارية لها بعد الحرب العالمية الأولى؛ وذلك نتيجة الانقسامات التي حلت بهذه الاحزاب(٢٤). لقد كان من نتائج ذلك، ان الثورات التي شهدتها الشام وبقية الوطن العربي بعد الحرب، مثل الثورة العراقية ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، والثورة السورية ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧، والثورة المصرية ١٩١٩، والمغربية ١٩٢٥، كانت، رغم حدتها، لا تتسم بأي تنسيق فيما بينها، وكانت تقوم من أجل تحقيق مطالب اقليمية محدودة(٢٥).

ولكن المفارقة هي انه بموازاة هذا الضعف، والتشتت، والانهيار الذي لازم الحركة القومية على الأرض، حتى العقد الثالث، فان التنظير الايديولوجي، القومي، الذي اتخذ، منذ نهاية الحرب، شكل تبلوره الحاسم، كان يعكس مستوى عالياً من الطموح، في وضع الاهداف والاحلام التي كان يسعى إلى تحقيقها، بحيث كان يمكن ملاحظة هذا البون الشاسع، بين المحتوى النظري الذي تضعه الحركة القومية لاهدافها ومشاريعها، وبين واقع بنيتها وتركيبتها على الأرض. أي الفجوة الكبرى بين التنظير والممارسة. كان هذا المأزق، الذي تواصل بعد ذلك ووسم الممارسة التي ميزت تاريخ الحركة القومية العربية، منذ بداية القرن، لا يعكس فقط طبيعة البنية الاجتماعية العربية وتأخرها، وانما كان يعكس، بالدرجة الأولى، اخفاق المشروع الذي حملته الحركة القومية العربية. اخفاق لا يتناول الاداء فقط، وانما يتناول الصياغة الايديولوجية. وإذا كان لا بد من اجراء نوع من المقارنة، بين النموذجين اللذين يمكن أن يعبرا بوضوح عن هذه الدلالة ـ والمقصود الدور الذي لعبته الحركة القومية التركية بموازاة الدور الذي حاولت ان تلعبه الحركة القومية العربية ـ فانه يمكن القول: ان الأولى نجحت في صياغة ايديولوجيا انتقالية لمجموع المجتمع، تلبي حاجات اكثر دواماً للبرجوازية، وفي خلق بنية تنظيمية ترافق هذه الصياغة. ولذا، فان القومية في تركيا اتسمت بهذا الطابع العلماني للنظام(٢٦).

أما الحركة القومية العربية التي عجزت عن تحقيق هذا الانتقال، فقد اتخذت، منذ البداية، الايديولوجية السلفية غطاءً لتبرير مشروعها «الثوري». أما في المرحلة التالية، أي عندما حاولت ان تبلور مشروعها الخاص المستقل، فانها لم تجد بداً، أيضاً، من ايجاد نوع من التوافق الايديولوجي مع الاسلام، أي «اللجوء مؤقتاً على الأقل، الى المبنى والرموز التي يقدمها الاسلام»(٢٧).

لقد أدى هذا الاخفاق، الذي يكشف عنه المشروع القومي، الى هذا التمازج على الصعيد الايديولوجي، بين الدين والليبرالية، في التنظير الذي تطرحه الحركة القومية العربية، ولكنه تمازج يخفي علاقة توتر بين الجانبين. كما أدى أيضاً، بموازاة ذلك، الى تهيئة الظروف الملائمة لأن تنطلق الحركة السلفية التي أصطبغت بالطابع الوطني، في تقديم مشروعها الخاص الذي لا يظهرها، فقط، بمظهر التفوق الذي ما يزال قادراً على أن يلعبه الدين كأيديولوجيا، وانما بوصفها، اولاً وقبل أي شيء، الحركة الوحيدة المؤهلة والقادرة على «انقاذ وحدة الجماعة» وصد الخطر الأجنبي الذي يحيق بالأمة.

وهكذا تحددت سيماء مشتركة، في معظم الحركات السلفية الوطنية التي رفعت راية